كلية الدراسات العليا للتربية
قسم أصول التربية

المبادرات الأولية لحركات إصلاح التعليم بجامع القرويين

من منتصف القرن ١٩ إلى الربع الأول من القرن ٢٠

إعداد

العياشي الحموشي

إشـــراف:

أ.د/ سامي محمد نصار
أستاذ أصول التربية
كلية الدراسات العليا للتربية
جامعة القاهرة

د/ دعاء عثمان عزمي
الأستاذ المساعد بقسم أصول التربية
كلية الدراسات العليا للتربية
جامعة القاهرة

٢٠٢١

مقدمة:

يعتبر جامع القرويين بالمغرب من أقدم الجامعات في العالم[i]، ومن أعرق الجامعات الإسلامية، أسس الجامع كمسجد صغير في عدوة القرويين بمدينة فاس في عهد الأدارسة، على يد فاطمة الفهرية أم البنين، في رمضان من سنة ٨٥٩/٢٤٥[ii].

استمر جامع القرويين في نشاطه الديني والعلمي منذ تأسيسه، حتى أصبح في عهد الموحدين يضاهي مراكز العلم بالأندلس، وفي عهد المرينيين الذين كانت لهم عناية بالمؤسسات التعليمية، حظي جامع القرويين باهتمام بالغ؛ لذلك اعتبرت هذه المرحلة من أزهى فترات القرويين؛ إذ غنيت المواد الدراسية وتنوعت؛ نتيجة لهذا الحج الموالي على مدينة فاس[iii].

وظل جامع القرويين على مر العصور عنصريا أساسيا من العناصر التي أطرت المجتمع المغربي، وكان له دور كبير في تأصيل العلوم الشرعية، والحفاظ على الهوية الدينية والوطنية والثقافية[iv]، وبفضل الاهتمام البالغ الذي كان يحظى به، فإنه ما لبث أثناء عصور متتالية، أن استجمع عناصر النهضة ومقومات التطور، حتى توفرت له خصائص ومميزات الجامعة[v].

ومع بداية تراجع الحضارة العربية، ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي، ودخولها في طور الانكماش، تسرب إلى القرويين بعض الخلل والقصور، وتجلت بعض مظاهر الضعف في تقلص مجالها التعليمي، وإعطاء الأسبقية للعلوم الدينية واللغة العربية، وتهميش العلوم العقلية والتطبيقية، حتى اختفت من حلقات العلم أو كادت، والاعتماد على أساليب عقيمة في التلقين[vi]، التي قامت على أساس المختصرات، وحظيت هذه الطريقة بإقبال العلماء المتعلمين عليها[vii].

وانحصر هم العلماء في النقل عن السابقين، ولجأوا إلى اختصار مؤلفاتهم وقولبتها في متون لتسهيل حفظها، وتراجع التأليف والإبداع، فضعفت الملكة؛ لفساد النظام[viii] التعليمي،

وانطبع التعليم بالركود وهزالة المردودية، وترتب على ذلك إماتة روح النقد، ومعارضة كل محاولة تهدف إلى تجديد أساليب التعليم[ix].

وقد ساهم في التراجع العلمي لجامع القرويين وانخفاض المستوى التعليمي في القرويين ، انحصار موارده المالية التي كانت تأتيه من إيرادات الأوقاف؛ بسبب الخراب الذي لحق بممتلكاتها من دور ومحلات تجارية وبساتين، والمخصص ريعها للمدارس والأنشطة العلمية، ولم يبق سوى دخل بسيط يمكن من الاحتفاظ بالأساتذة، الذين يتقاضى بعضهم مائتي مثقال وبعضهم مائة وبعضهم أقل من ذلك[x].

وقد تفطن بعض سلاطين المغرب في عهد الدولة العلوية إلى ما آل إليه حال التعليم بالقرويين من انحدار وتدهور، وسيطرة التقليد والجمود على برامجها التعليمية، فعمدوا إلى التفكير في إصلاح واقع الدراسة والتكوين بالجامع[xi]، وكانت مبادرة السلطان محمد بن عبد الله أول حجرة أساس لإصلاح الدروس بجامع القرويين[xii] مساء القرن الثامن عشر.

وبسبب الاحتكاك المغرب بالدول الأوروبية منتصف القرن التاسع عشر، وما ترتب على هذا الاحتكاك من نتائج سيئة، توجهت عناية الحكام إلى إصلاح الدولة إصلاحا شاملا، وامتد الإصلاح إلى ميدان التعليم[xiii]، وأعيد فتح ملف إصلاح القرويين في عهد السلطان عبد الرحمن بن هشام سنة ١٨٤٥[xiv].

ومع مطلع القرن العشرين ظهرت مشاريع دستورية وفكرية، شكلت فيها قضية إصلاح التعليم عنصرا رئيسيا، وتوجت المساعي الرامية إلى إصلاح القرويين بمشروع شامل ومتكامل سنة ١٩١٤[xv]، على يد الهيئة العلمية المكونة للمجلس التحسيني للقرويين[xvi].

وقد كان هذا الموضوع محط عناية بعض الدارسات، تناولته من زوايا متباينة، وفي مدد مختلفة، **فدراسة عبد الهادي التازي (١٩٧١)**[xvii]، سعت إلى تقديم صورة شاملة عن جامع القرويين منذ تأسيسه في عهد الدولة الإدريسية، صعودا إلى منتصف القرن العشرين، وألقت الضوء عن التطور الفكري والعلمي والتعليمي لجامع القرويين، وأبرزت أدوار الدول التي تعاقبت على حكم المغرب في تطوير القرويين وتجديده، وهو ما تؤكده

دراسة أحمد البهي الحفناوي (١٩٧٣)[xviii]، وإن كان هدف الدراسة هو إظهار دور جامع القرويين في حفظ ثقافة الإسلام ونشرها على مستوى الداخلي والخارجي.

بينما **دراسة محمد الفلاح العلوي (١٩٩٤)**[xix] تناولت موضوع إصلاح القرويين في إطار علاقته بالحركة السلفية المغربية، أواخر القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، من خلال معالجة لأصول الفكر السلفي، وارتباط هذا الفكر بواقع القرويين الفكري والتعليمي، ودوره في إحداث دينامية في النسق الفكري والثقافي داخل القرويين.

وهذه المقاربة تشابكت من وجه **مع دراسة محمد عمراني (١٩٨٨)**[xx]، التي أكدت بدورها على دور الحركة السلفية في إصلاح القرويين، وإن كان اهتمام الدراسة انصب بالأساس على الصراع بين القرويين والحماية الفرنسية، وتبيين السياسة التي انتهجتها الحماية إزاء قضية إصلاحها، والعراقيل التي وضعتها أمام تطوره، والإصلاحات الشكلية التي أدخلتها عليه كأداة لإخضاع القرويين لرقابتها؛ حتى تتمكن من محاصرته والتحكم في مساره.

وتؤكد الدراسات السابقة عامة بشكل مباشر أو من خلال مؤشرات وتمظهرات معينة، على أن جامع القرويين كان يعاني من حالة ركود؛ تسببت فيها فترات طويلة من الإهمال، كما أكدت على أن المحاولات الإصلاحية التي تخللت القرنين: الثامن عشر والتاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين كان أمدها قصيرا، ولم تسفر على أي نتائج تذكر.

أسئلة الدراسة:

تدور الدراسة حول المبادرات الأولية لإصلاح التعليم بجامع القرويين، من منتصف القرن التاسع عشر إلى الربع الأول من القرن العشرين، ومن ثم فإن الدراسة تتغيى الإجابة على السؤال الرئيس التالي:

ما المبادرات الأولية لحركات إصلاح التعليم بجامع القرويين من منتصف القرن التاسع عشر إلى الربع الأول من القرن العشرين؟

ويتفرع عن السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية التالية:

- ما دعوة السلطان عبد الرحمن بن هشام لإصلاح التعليم بجامع القرويين؟
- ما مقترحات المشاريع الدستورية لإصلاح التعليم بجامع القرويين؟
- ما مباردة السلطان يوسف لإصلاح التعليم بجامع القرويين؟
- ما مشروع محمد بن الحسن الحجوي لإصلاح التعليم بجامع القرويين؟

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى:

- تعرف دعوة السلطان عبد الرحمن بن هشام لإصلاح التعليم بالقرويين.
- تعرف مقترحات المشاريع الدستورية لإصلاح التعليم بالقرويين.
- تعرف مباردة السلطان يوسف لإصلاح التعليم بجامع القرويين.
- تعرف مشروع محمد بن الحسن الحجوي لإصلاح التعليم بجامع القرويين.

أهمية الدراسة:

تنبعث أهمية هذه الدارسة من عدة اعتبارات، أهمها:

- أن جامع القرويين من أقدم الصروح العلمية في المغرب والعالم الإسلامي أجمع، ومن أهم المؤسسات الإسلامية العتيقة على مستوى العالم الإسلامي؛ قديمه وحديثه.
- تعتبر فترة الدراسة في تاريخ القرويين من أهم فتراتها؛ إذ شهدت خلالها المبادارت الأولية، التي شكلت نواة المشاريع الإصلاحية لتنظيم القرويين في القرن العشرين.

منهج الدراسة:

يفرض موضوع الدراسة الالتزام بالمنهج التاريخي[xxi]؛ لرصد وتتبع المبادرات الأولية لحركات إصلاح التعليم بجامع القرويين من خلال المصادر الأولية، والاستعانة بالمراجع

ذات العلاقة بالدراسة؛ وذلك بغية الوصول إلى استنتاجات منطقية موضوعية تتجنب التأثيرات الذاتية.

حدود الدراسة:

تغطي الدراسة فترة تمتد من النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى الربع الأول من القرن العشرين، وهي الفترة التي شهدت بداية حركات إصلاح التعليم بجامع القرويين.

وتشتمل الدراسة على المحاور التالية:

١- دعوة السلطان عبد الرحمن بن هشام لإصلاح التعليم بجامع القرويين.

٢- مقترحات المشاريع الدستورية لإصلاح التعليم بجامع القرويين.

٣- مبادرة السلطان يوسف لإصلاح التعليم بجامع القرويين.

٤- مشروع محمد بن الحسن الحجوي لإصلاح التعليم بجامع القرويين.

المحور الأول: دعوة السلطان عبد الرحمن بن هشام لإصلاح التعليم بجامع القرويين:

لم يشهد التعليم بجامع القرويين أي تجديد أو مبادرة إصلاح، منذ المبادرة الأولى للسلطان محمد بن عبد الله سنة ١٧٨٠[xxii]، والتي انمحت واندثرت بإقدام ابنه السلطان سليمان فترة ولايته على إلغاء مشروع والده، والعمل على إعادة التعليم بالقرويين إلى وضعه ما قبل سنة ١٧٨٠.

وكان التعليم بالقرويين قد شهد تراجعا وانحطاطا كبيرين، خاصة بعد معركة إيسلي سنة ١٨٤٤[xxiii]، التي كانت لها عواقب سيئة على التعليم القرويين، ويوضح ذلك التراجع، خطاب أحد طلبة القرويين لأسرته، أورد فيه أثر الهزيمة، على التعليم بالقرويين، وتعطيل الدراسة به، وأن فاس- كما ورد في الخطاب- قد تزعزعت وتروعت روعا شديدا، وطلبة العلم يخرجون كل واحد قصد بلده، وانقطعت القراءة رأسا، حتى كانت الجماعة تنقطع منه، وبيوت المدارس أصبحت لا يسومها أحد[xxiv].

ونتيجة للتحديات الخارجية التي واجهت الدولة في عهد عبد الرحمن بن هشام، توجهت عنايته إلى تحديث الدولة تحديثا شاملا، احتلت فيه الجوانب الفكرية، ومحاربة الفساد، وإصلاح القضاء مركز الصدارة، وفي هذا الإطار وجه السلطان خطابا توعويا دعويا مفتوحا لسائر عماله في مختلف المناطق؛ ليقرأ على الناس في المساجد والأسواق ومواضع اجتماعهم في مواسمهم[xxv].

وقد أشار الخطاب إلى ما آلت إليه وضعية التعليم، وإلى نقص الأطر العلمية من علماء الشريعة؛ بحيث أصبحت معه بعض القبائل الكبيرة، لا يجد أهلها عالما يرجعون إليه في أمور الدين ونوازل الأحكام[xxvi]، وحث الخطاب العمال على توفير التعليم في المناطق المختلفة بالمغرب.

ظهير السلطان عبد الرحمن بن هشام لإصلاح التعليم بالقرويين: لقد كان من ضمن انشغالات السلطان بمجال التعليم عامة، اهتمامه بالتعليم بجامع القرويين؛ إذ إنه في سنة ١٨٤٥ أصدر ظهيرا موجها لابن عمه، قاضي مدينة فاس، الفقيه عبد الهادي[xxvii]؛ لتطوير التعليم بالقرويين، وتمحور الظهير السلطاني حول محورين أساسيين، هما: طرق التدريس، ومدة الدراسة.

طرق التدريس: كانت طرق التدريس في جامع القرويين حبيسة الماضي، ولم يطرأ عليها أي تحديث منذ القدم، وتسرب إليها الجمود، كما تسرب إليها غيرها من مناحي المنظومة التعليمية؛ حيث كانت أساليب التدريس تخضع لهوى المدرسين، فكل مدرس وطريقته التي يرتضيها في التلقين.

وقد حدد الظهير السلطاني النقاط التالية من أجل الارتقاء بطرق التدريس بالقرويين، وتحسين أساليب التلقين بها[xxviii]:

- الاقتصار في التدريس على حل الكتب الدراسية وكلام المؤلفين، وإفهامه للطلبة والمستمعين.

- التنبيه على الأخطاء والتحريف من غير مبالغة، ودون تشويش على الطلبة بترديد الاعتراضات.
- عدم مناقشة الألفاظ في مادة الفقه، والاكتفاء ببسط المسائل الفقهية وفصولها وتقريبها للفهم.
- تجنب التشغيب بالاعتراضات وردها، ومناقشة الألفاظ، وكل ما قد يسبب خلطا للمتعلمين، ويلبس عليهم الصحيح من الضعيف، وتجنب التطويل والحشو؛ لما يضفيه ذلك من الملل والخلل.
- تسهيل طرق التعليم، وضرورة النزول عند مدارك الطلبة، وتسهيل العبارات بما يتناسب وقدراتهم العقلية ومستواهم المعرفي.

مدة الدراسة: كانت مدة الدارسة بالقرويين غير محددة، فهي تعود لرغبة الطالب، وقد ساهم العلماء بطرق تدريسهم في تطويلها، وهو الأمر الذي لم يستسغه السلطان، فانتقد أساليبهم في التدريس الذي كان جاريا على عهده من تطويل ممل[xxix]، ودعاهم إلى تقليص مدة تدريس المقررات؛ بحيث لا يجاوز الفقيه في سلكة خليل العام، وإن طال ففي عامين، ولا يجاوز في الألفية الشهر والشهرين[xxx].

وكان أسلوب شرح المقررات الدراسية تضيع أعمار الطلبة، فيقضون في سلكة خليل العشر سنوات، وفي الألفية العامين والثلاثة[xxxi]، وبالرغم من المدة الطويلة التي يمكثها الطالب المغترب في القرويين، فإنه لا يحصل مع كثرة دؤوبه على طائل، ولا يقف على محصول حاصل[xxxii]، وفق ما ورد في الظهير السلطاني.

لكن مما يلاحظ على الظهير السلطاني أنه لم يرق لمستوى القوانين، ولا يحمل طابعا إلزاميا، فهو لا يعدو أن يكون خطابا توجيهيا وإرشاديا، موجها لعلماء القرويين عن طريق قاضي فاس؛ المشرف العام على الجامع، وقد أمره فيه بجمع المدرسين، وتنبيهم على خطأ ما جرت به العادة، وإرشادهم لنظام كفيل بالتحصيل والإفادة[xxxiii].

كما أن ملاحظات السلطان حول التعليم بالقرويين، وتردي أحواله، لم تخل من مبالغة في النقد، ويبدو أن سببه انسياق السلطان لأساليب الخطاب، والانقياد للسجع، الذي كان سائدا في هذا العصر، والمبالغة التي كانت ملازمة للانتقاد[xxxiv]، فوصفه لحالة التعليم بالقرويين، تتنافى مع شهادة عالم جزائري درس في القرويين عشر سنوات[xxxv] إبان الفترة ذاتها تقريبا.

وبالرغم من محدودية الجوانب الإصلاحية التي تناولها الظهير، والذي يعد ثاني مبادرة لإصلاح التعليم بالقرويين، إلا أنه أحدث بعض الأثر؛ من حيث تحسين مستوى الدرس، وتكوين اتجاهات جديدة، وأصبحت الكفاءة العلمية تقاس بمقياس، غير الذي كانت تقاس عليه بالأمس[xxxvi].

غير أن الظهير لم يكن له مفعول في صرف العلماء عن كتبهم المفضلة[xxxvii]؛ إذ إن توجيهاته وملاحظته كانت منصبة بالأساس على نقد طريقة التدريس وعمل المدرسين، وإبراز العيوب التربوية الضارة في تكوين الطلبة، والتي تؤدي إلى نتائج عكسية، رغم الجهد، وطول المدة الي يمضيها الطلبة في الدارسة.

ومهما كان من أهمية الظهير فإنه لم يطرح بديلا، ولا اقترح جديدا، فقد اكتفى بالتنبيه على تغيير طرق التدريس وتقليص مدة الدارسة، وتجنب ما يورث الملل لدى المتعلمين؛ من الإطناب والاستغراق في حل الألفاظ، دون أن يمس المناهج الدراسية، أو التفكير في إضافة علوم جديدة، أو التعديل مما هو قائم منها.

فمبادرة السلطان عبد الرحمن مبادرة إصلاحية جزئية، لم تتجدد بها المنظومة التعليمية بالقرويين، المنكفئة على المختصرات، وإعطاء الأسبقية للمنقولات على حساب المعقولات، والاستغراق في إنتاج عقليات مكررة، في الوقت الذي كانت تفرض فيه الحالة المغربية؛ سياسيا واقتصاديا واجتماعيا شيئا من الدراسات الحديثة.

المحور الثاني: مقترحات إصلاح التعليم في المشاريع الدستورية:

بدأ الوعي بأهمية النهوض بميدان التعليم- بشكل أوضح- متأخرا، وكان ذلك الوعي نتيجة للاحتكاك المغرب بالدول الأوروبية، إما عن طريق الغزو الاستعماري للمنطقة، واضطرار المغرب للتعامل معها[xxxviii]، أو عبر ما تنقله السفارات المغربية لهذا الدول من مشاهد عن مستوى التعليم بهذه الدول، ويدرج ضمن هذا الإطار رحلة الصفار الذي حرص في رحلته[xxxix] على تقديم النموذج الفرنسي في ميدان التعليم، وكأنه يسرد عيوب المدرسة المغربية بشكل مستتر[xl].

ويبدو أن الفئة المثقفة والعالمة كانت تعي حجم التأخر في ميدان التعليم، الذي كان عليه المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[xli]، فأولته بعض النخب الفكرية أولية على غيره من المشاريع، فمحمد المشرفي انتقد سياسات الدول الغربية التي أبرمت اتفاقات مع المغرب للقيام بمشاريع إصلاحية؛ خاصة الاتفاقية المبرمة بين المغرب والإنجليز سنة١٩٠١[xlii]؛ لكونها لم تراع منطق الأولية في الإصلاح.

ويرى المشرفي أن الإصلاح يجب أن يكون منطلقه إصلاح التعليم، وتأسيس المدارس، بدلا من إقامة السكة الحديدية والتلغراف والإصلاح الضريبي[xliii] وغيرها من أعمال التطوير، التي لا تتناسب والحالة المغربية الراهنة، وأن الإنجليز لو أرادت الإصلاح حقا دون دسيسة، لأشارت على المغرب بإدخال العلوم الرياضية لوطنه، وبناء المدارس لقراءتها وتدريسها والاجتهاد في تحصيلها؛ فتكتسب الدولة رجالا يدفعون عنها، بما علموه من العلوم الرياضية[xliv].

ونتيجة لاتفاقيات المبرمة بين المغرب وبقية الأطراف الأوروبية، والتفاهمات بين فرنسا وبقية الدول الأوروبية، التي أتاحت لفرنسا التفرد بالمغرب، تحت غطاء تقديم المساعدة، فعرضت عليه برنامجا إصلاحيا موسعا[xlv]، تكون إثر ذلك ما سمي بمجلس الأعيان، والذي ضم بين أعضائه بعض علماء القرويين؛ لمناقشة المطالب الفرنسية، وبجانب

تأسيس مجلس الأعيان، ظهرت فكرة وضع دستور للمغرب في محاولة إصلاحية؛ لمواجهة المد الاستعماري، وللحد من التذمر الشعبي[xlvi].

وظهرت خلال هذه الفترة ثلاثة مشاريع دستورية، تطمح للملكية الدستورية؛ باعتبارها حلا وحيدا لأزمات البلاد[xlvii]، وبالرغم من كون الجانب التنظيمي لدواليب الدولة، وبالأخص العسكري والإداري، هو الجانب المسيطر، إلا أن قضية إصلاح التعليم شكلت عنصرا هامة من بين مقترحاتها، ويمكن إيراد اقتراحات الخاصة بإصلاح التعليم في المشاريع الدستورية بإيجاز في ما يلي:

١- **مشروع محمد عبد الله بن سعيد:** وهو مشروع دستور تم إعداده بطلب من السلطان عبد العزيز بشأن الإصلاحات التي تضمنها المشروع، ويقترح فيه صاحبه في المحور الأول من الفصل الثاني، إحداث مدارس لتعليم مهمات جديدة، يتوقف نفوذ النجاح عليها وعلى معرفتها[xlviii]، كما يشير في الدباجة إلى أن المعارف لدينا أسرع رجوعا؛ لأنها منا أخذت.

٢- **مشروع الشيخ عبد الكريم مراد**[xlix]: تتحدد أهم اقتراحاته في:

- إنشاء هيئة تعليمية على شكل مجالس في كل بلدة برئاسة شيخ العلماء، ومن مهام المجلس إدارة أوقاف العلماء وشؤون المدارس ومواضع التدريس[l].
- قيام شيخ العلماء بحصر العلماء والمدارس المعدة للطلبة ومخصصاتها في كل بلدة، وتحرير مواضع التدريس وأعمال الطلبة التي ترفع شهريا من معلميهم في سجلات مخصصة[li].
- إجراء امتحانات شهرية، ورفع درجات الطلبة لشيخ العلماء، وإجراء امتحان سنوي للانتقال إلى مدرسة أعلى، ومنح شهادات لمن أنهوا دراستهم، بحضور المجلس والأعيان[lii].

٣- **مشروع الحاج علي زنيبر السلاوي:** يشي عنوان المذكرة الموسومة "بحفظ الاستقلال ولفظ سيطرة الاحتلال" بمحتواها، لذلك اقتصرت اقتراحاته في شأن التعليم في اتخاذ التدابير اللازمة لإدخال الفنون والمعارف العصرية، وأنواع المصانع الحديثة[liii]؛ لخدمة الأغراض الاقتصادية، واقترح استعمال اللغة العربية بجانب اللغة الأجنبية للضرورة؛ بشرط عدم انفرادها بشيء على سلطة الإجراءات العربية العمومية[liv].

وتطورت الحركة الدستورية تطورا ملحوظا في العهد الحفيظي، وبلغت أوجها مع مشروع دستور ١٩٠٨، "كيان الدولة ومقام السلطان"، المنشور على صفحات صحيفة لسان المغرب، وقد أتاح المشروع لميدان التعليم مساحة كبيرة؛ لذلك يعتبر أنضج المشاريع الإصلاحية؛ لما احتواه من مقترحات وحلول إجرائية واضحة لمعضلة المنظومة التعليمية.

ومشروع دستور "كيان الدولة ومقام السلطان"، هو الوحيد من بين المشاريع الدستورية الذي أولى عناية خاصة للتعليم بالقرويين، ودعا لوضع قانون تسير وفق قواعده، وإن كانت مقترحات الدساتير الأخرى تشمل القرويين بوجه أو بآخر؛ ومن أهم مقترحات مشروع دستور كيان الدولة ومقام السلطان ما يلي:

- المراحل التعليمية: اقترح المشروع تقسيم المراحل التعليمية إلى ثلاثة أطوار: ابتدائي، ويعمم على كل بلدة وقبيلة للذكور والإناث[lv]، وثانوي للذكور فقط وفي البلدان الكبرى، دون غيرها[lvi]، والمدارس العليا (الكليات)، وحصر هذه المرحلة في جامع القرويين، ودعا لتحسينها، وإصلاح كل شؤونها المادية والمعنوية.
- المواد الدراسية: اقترح في المرحلة الابتدائية أن يقتصر على تهذيب الأخلاق، وتعليم القراءة والكتابة بالعربية وأصول الدين ومبادئ العلوم، وأن يرتقي بالعلوم بالمدارس الثانوية وتدريسها بالطرق الحديثة وبكتب عصرية، أما في الطور الأخير بالقرويين حتم إدخال العلوم اللازمة للعصر، مع ضرورة وضع قانون تسير وفق مقتضياته[lvii].

- إلزامية التعليم ومجانتيه: دعا المشروع إلى إجبارية التعليم بالطور الأول، لمن هم في سن السادسة من الذكور، وباقية المراحل اختيارية[lviii]، أما الإناث فيحرضن بأساليب الترغيب والتحريض للالتحاق بالمدارس الابتدائية[lix].
- استقطاب الأطر العلمية، واشتراط الكفاءات والاقتدار العلمي في اختيارهم، سواء كانوا من المواطنين، أو الأجانب الحاصلين على شهادة المدارس المشهورة، بغض النظر عن جنسياتهم، أو انتماءاتهم العقدية[lx].

والمشارع الدستورية الآنفة الذكر، تأرجحت بين مشاريع اتخذت طابعا رسميا أو شبه رسمي، وقد أسندت في الفترة ذاتها بمشروع فكري رائد، من إعداد محمد بن الأعرج السليماني، شكل قاعدة أساسية للفكر الإصلاحي عامة، وفي ميدان التعليم على وجه الخصوص؛ لتميزه بتقديم أطروحة إصلاحية شاملة، تحددت فيها آليات ووسائل وإجراءات التنفيذ بشكل واضح.

ومن أهم مقترحاته الإصلاحية في ميدان التعليم[lxi]:

- المراحل التعليمية: قسم ابن الأعرج المراحل الدراسية إلى أربعة مراحل، مخالفا كل من سبقه ومن تلاه في هذا التقسيم، وذلك على النحو الآتي:
- المرحلة ما قبل الابتدائية: متمثلة في المدارس القرآنية (الكتاتيب)، يلحق بها الأطفال في سن الخامسة، ومدتها سنتان، يخضع في نهايتها لامتحان الانتقال للمرحلة الموالية.
- المرحلة الابتدائية: يلتحق فيها الأطفال وهم في سن السابعة، واقترح أن يلقن فيها الحساب والجغرافيا والتاريخ وجيولوجيا وعلم المعادن والزراعة والكيمياء والطب وغيرها، بجانب العلوم الشرعية واللغة العربية، ومدتها أربع سنوات.

- المرحلة الثانوية: اقترح ابن الأعرج أن تتوفر المدارس الثانوية في الأماكن الحضرية، وأن يدرس فيها ما أجمل في المرحلة السابقة، بإضافة علوم نقلية وعقلية وتطبيقية أخرى، ومدتها أربع سنوات.
- المدرسة العليا (الجامعة): يرى ابن الأعرج أن يتلقى الطالب في هذه المرحلة بتوسع ما أجمله في المرحلة الثانوية، وأن ينفرد بفن مخصوص يختاره لنفسه، وأن تشمل المرحلة على فنون وعلوم أخرى، موزعة على عدة فروع معرفية: عسكرية ومدنية وعلمية.

تمويل التعليم: ولتوفير الموارد المالية للتعليم، وما تحتاجه المدارس من أدوات ومعامل، يقترح ابن الأعرج أن يتم التمويل عن طريق الحكومة، بفرض زيادة جزئية طفيفة على الجباية السنوية، وعن طريق الاكتتاب وتبرعات الأهالي والجمعيات الخيرية، وتوعية المواطنين عن طريق الكراسي والمنابر[lxii]، وحثهم على المساهمة ماديا في الصناديق المخصصة لذلك.

ورؤية محمد بن الأعرج رؤية شاملة متكاملة، روعي فيها الجزئيات والتفاصيل الدقيقة، وأتبعها مع تتابع السنين بعدة مقالات في صحيفة السعادة، بث فيها توجهاته بخصوص التعليم بالقرويين، أبرزها مقال موسوم بحالة علوم الدين بجامع القرويين[lxiii]، أورد فيه مجموعة من الاختلالات التي كان يعاني منها القرويين؛ بهدف زحزحة الجمود الذي اعترى الدراسات في القرويين بصورة عامة، وتشجيع اتجاه إحياء الاهتمام بالدراسات الحديثية والقرآنية[lxiv].

وقد ظلت المشاريع السالفة الذكر حبرا على روق؛ لأنها أتت في ظرفية غير مواتية، وفي وضعية تاريخية غير مستقرة، جاهد فيها المغرب من أجل عدم سقوط أراضيه، التي بدأت تتآكل أطرافها من قبل الاستعمار الأوروبي، فيما استقرت القرويين على وضعيتها، إلى أن تم توقيع معاهدة الحماية سنة ١٩١٢؛ لتبدأ القرويين مرحلة جديدة من المعاناة تحت الاستعمار الفرنسي.

المحور الثالث: مبادرة السلطان يوسف لإصلاح التعليم بجامع القرويين:

كان التعليم بجامع القرويين وفروعه منتصف القرن التاسع عشر قد شهد تراجعا وركودا كما سبق القول، بلغ أوجه بداية القرن العشرين، ومن تمظهرات تراجع مستوى التعليم به، "إهمال التدريس في القرويين وكساد صناعته، وفتور همة المتعلمين، وقلة رغبة الدارسين[lxv]، وانحصار المناهج التعليمية عن ذي قبل، واختفاء العلوم التي أعيد إدماجها في عهد محمد بن عبد الرحمن؛ من طب وكيمياء وحساب وهندسة وفلك، وإن لم يتجاوز الأمر تدريس مبادئها الأولية[lxvi].

كما اختفى علم التفسير أو كاد، وكذلك الأدب وعلم الكلام والتصوف، وفي المقابل لقي علم الفقه والنحو اهتماما وعناية كبيرة؛ حيث حظي الفقه بثمانية وأربعين درسا، بينما كان للنحو أربعة وثلاثون[lxvii]، وتقلص عدد الكراسي العلمية التي كانت تتجاوز في فترة من الفترات إلى أزيد من مائة وأربعين كرسيا في جامع القرويين وفروعها[lxviii]، إلى ست كراسي بداية القرن العشرين[lxix] في جامع القرويين.

وظل علم الحديث عمدة الدين في القديم والحديث– حسب تعبير ابن الأعرج – مهمشا، واقتصر تدريسه على السرد للتبرك كما يقصدون، فلا يفيدون ولا يستفيدون[lxx]، بالرغم من وجود من لديه اقتدار على تدريس الحديث رواية ودراية، لكنه لم يكن يعتلي كرسي شرح صحيح البخاري سوى محمد بن جعفر الكتاني[lxxi].

ومجمل القول أن جامع القرويين مطلع القرن العشرين كان قد وصل إلى درجة كبيرة من الانحطاط، لم تعد معه منظومتها التعليمية قادرة على مسايرة الواقع والأحداث، أو التطورات التي عرفتها البلاد، وعجزت عن رفع قدرات المغالبة الحضارية، بل إنها عكست المشكلات السياسية والمجتمعية، التي أثرت في مواده وأساليبه التربوية[lxxii].

وكانت فكرة إصلاح التعليم عامة وفي القرويين على وجه الخصوص دائرة بين النخب الفكرية، وقد مهدت لها المشاريع الدستورية والفكرية، ومناداة المصلحين بالثورة على الجمود والتخلف، والتي طرحت قضية النهوض بالتعليم كإحدى الشروط الأساسية، واللبنات

الأولى لمشروع الإقلاع الحضاري، وقد ساهم كل ذلك في خلق شبه إجماع لدى النخبتين: النخبة العالمة، والسلطة السياسية على السواء، وأصبحت الفكرة (إصلاح التعليم بالقرويين) محط اهتمام النخبتين معا.

وإثر تولي السلطان يوسف عرش المغرب، أبدى اهتمامه في بداية عهده بإصلاح التعليم بجامع القرويين، وجعله من الأولويات في سياسته الإصلاحية العامة للبلاد، وقبل مضي شهر على تربعه على العرش، استدعى السلطان إلى قصره هيئة علمية من علماء القرويين في أوائل سبتمبر من عام ١٩١٢[lxxiii]، وصرح للهيئة بأنه يريد إدخال بعض الإصلاحات الضرورية التي تكفل حياتها[lxxiv]، وأبدى تأسفه وتأثره لما وصل إليه حال التعليم بها، وعزمه على تطويرها، والرقي بها إلى مؤسسة تعليمية تساير العصر؛ أسوة بباقي المؤسسات الأخرى بالدولة.

وكان لقاء السلطان

---

[i] حسن جلاب. إصلاح جامعة القرويين بين الأمس واليوم. ط ١. مراكش. ٢٠٠٤. ص ٨.

[ii] علي الجزنائي. زهرة الآس في بناء مدينة فاس. تحقيق: عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية. الرباط. ١٩٩١. ص ٤٥.

[iii] عبد الهادي التازي. جامعة القرويين بفاس. مجلة القرويين. جامعة القرويين. فاس. العدد ١. ص ١٩٨٩. ص ٤٣- ٥٦.

[iv] رشيدة برادة. الجامعات المغربية الأصيلة "القرويين وابن يوسف. مجلة علوم التربية. ع ٣٥. الرباط. أكتوبر- ٢٠٠٧. ص ١١٣- ١٢١.

[v] حسن عزوزي. جامعة القرويين ودورها التاريخي في البناء الحضاري. مطبوعات المجلس العلمي المحلي بفاس. فاس. ٢٠٠٨. ص ١١.

[vi] **محمد عمراني. جامعة القرويين والحماية (١٩١٢– ١٩٣٤). مط ١. منشورات الرباط نت. الرباط. ٢٠١٦. ص ١٥.**

[vii] **عبد الله بنصر العلوي. الواقع الفكري في فجر الدولة العلوية. ورقة مقدمة لندوة: الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الأول. بتاريخ ٩– ١١ ديسمبر ١٩٩٣. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. ١٩٩٥. ص ١٩٢.**

[viii] **حسن جلاب. جهود ملوك الدولة العلوية في إصلاح التعليم بجامعة القرويين وكلية بن يوسف. مجلة دعوة الحق. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط. مارس ١٩٩٩. ع ٣٤١. ص ١٠٢– ١١٢.**

[ix] **عبد السلام الطاهري. الفكر الإصلاحي بالمغرب "الخطاب السلفي المخزني نموذجا" (من ١٧٥٧ إلى ١٨٩٤). مط ١. طوب بريس. الرباط. ٢٠٠٨. ص ٢٧٣.**

[x] **الحسن بن محمد الوزان الفاسي. وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ١٩٨٣. مج ١. ص ٢٢٧.**

[xi] **حسن عزوزي. جامعة القرويين ودورها التاريخي في البناء الحضاري. مرجع سابق. ص ٤٠.**

[xii] **عبد الرحمن بن زيدان. الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة. ط ١. شركة نوابغ الفكر. القاهرة. ٢٠٠٨. ص ٦٥.**

[xiii] **عبد الرحمن بن زيدان. إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. تحقيق: علي عمر. مط ١. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. ٢٠٠٨. مج ٥. ص ١١٤.**

[xiv] **عبد الرحمن بن زيدان. النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية. تحقيق مصطفى الشابي. المطبعة الملكية. الرباط. ٢٠١٦. ١٨٥.**

[xv] **محمد بن الحسن الحجوي. كناشة بها نظام التعليم بالقرويين. المكتبة الوطنية للمملكة المغربية. الرباط. الكود: ح ١٣٠.**

[xvi] **محمد بن الحسن الحجوي. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٩٩٥. مج ٢. ص ٢٢٧.**

[xvii] **عبد الهادي التازي. جامع القرويين من الناحيتين التاريخية والحضارية. رسالة دكتوراه منشورة، كلية الآداب. جامعة الإسكندرية. ١٩٧١.**

[xviii] **أحمد البهي الحفناوي. جامعة القرويين ودورها في حفظ ثقافة الإسلام. رسالة دكتوراه منشورة. كلية اللغة العربية. جامعة الأزهر. ١٩٧٣.**

[xix] **محمد الفلاح العلوي. جامع القرويين والفكر السلفي (١٨٧٣– ١٩١٤). دبلوم دراسات عليا. منشورات مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. ١٩٩٤.**

[xx] **محمد عمراني. جامعة القرويين والحماية (١٩١٢– ١٩٣٤). دبلوم دراسات عليا منشور. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. شعبة التاريخ. جامعة محمد الخامس. الرباط. ١٩٨٨.**

[xxi] **الذي يعتمد على عملية الجمع والانتقاء والتصنيف، فهو عملية تركيب للتاريخ، ودمج للوقائع في مجموع حضاري شامل، يدور في نفس الوقت في سياق زمني محدد. (بتصرف). المراجع: عبود عبد الله العسكري. منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية. ط ١. دار النمير. دمشق. ٢٠٠٢. ص ٦– ٧.**

[xxii] **عبد الرحمن بن زيدان. الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة. مرجع سابق. ص ٦٥.**

[xxiii] **أحمد بن خالد الناصري. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري. دار الكتاب. الدار البيضاء. ١٩٩٧. مج ٩. ص ٥١– ٥٣.**

[xxiv] **محمد المختار السوسي. المعسول. بدون م. مج ١٢. ص ٣٠٣.**

[xxv] **عبد الرحمن بن زيدان. إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. مرجع سابق. مج ٥. ص ١٠٩.**

[xxvi] **المرجع نفسه. ص ١١٤.**

[xxvii] **المرجع نفسه. ص ١٣٩.**

[xxviii] **ظهير السلطان عبد الرحمن بن هشام ١٨٤٥. نقلا عن: عبد الرحمن بن زيدان. النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية. مرجع سابق. ص ١٨٥.**

[xxix] **عبد الرحمن بن زيدان. إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. مرجع سابق. مج ٥. ص ١٣٩.**

[xxx] **ظهير السلطان عبد الرحمن بن هشام ١٨٤٥. نقلا عن: عبد الرحمن بن زيدان. النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية. مرجع سابق. ص ١٨٥.**

[xxxi] **المرجع نفسه. ص ١٨٧.**

[xxxii] **المرجع نفسه. ص ١٨٦.**

[xxxiii] **عبد الرحمن بن زيدان. إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. مرجع سابق. مج ٥. ص ١٣٩.**

[xxxiv] **جامعة القرويين بين ماضيها ومستقبلها. مطبعة أگدال. الرباط. د. ت. ص ٢٤.**

[xxxv] **المرجع والصفحة نفسها.**

[xxxvi] **عبد الهادي التازي. جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس "موسوعة لتاريخها المعماري والفكري". دار نشر المعرفة. الرباط. ٢٠٠٠. مج ٣. ص ٧٢٨.**

([xxxvii]) **عبد الله گنون. النبوغ المغربي في الأدب العربي. دار الكتاب اللبناني. بيروت. دوت. ج ١. ص ٢٧٨.**

[xxxviii] **محمد زنيبر. هل هناك مصادر داخلية للإصلاح؟. ورقة مقدمة لندوة: الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. ٢٠- ٢٣ أبريل ١٩٨٣. ص ٣٥١.**

[xxxix] **محمد بن عبد الله الصفار. رحلة الصفار إلى فرنسا (١٨٤٥- ١٨٤٦). تحقيق: سوزان ميللر. ترجمة، خالد بن الصغير. مط ١. المؤسسة العربية للدراسة والنشر. بيروت. ٢٠٠٧. ص ٢٥١.**

[xl] **يحيى بولحية. البعثات التعليمية في اليابان والمغرب من أربعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين "تباين المقدمات واختلاف النتائج". مط ١. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. الدوحة. ٢٠١٦. ص ١٦٦.**

[xli] **المرجع نفسه. ص ١٧٢.**

[xlii] Pierre Guillen. **L'Allemagne et le Maroc De 1870 à 1905**. Presses universitaires de France Paris. 1967. p 601.

[xliii] **محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي. الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعدد بعض مفاخرها غير المتناهية. دراسة وتحقيق: إدريس بوهليلة. مط ١. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط. ٢٠٠٥. مج ٢. ص ٢٥٠.**

[xliv] **المرجع نفسه. ص ٢٥١.**

[xlv] Saint-René Taillandier. **Les origines du maroc français. "récit d'une mission" (1901-1906)**. Plon. Paris. 1930. P 147.

[xlvi] **آسية بنعدادة. الفكر الإصلاحي في عهد الحماية "محمد بن الحسن الحجوي نموذجا". مط ١. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ٢٠٠٣. ص ٣٩**

[xlvii] **مشروع الحاج علي زنيبر السلاوي. البند رقم ٢٧. نص المشروع من ملاحق: محمد المنوني. مظاهر يقظة المغرب. شركة النشر والتوزيع المدارس. الدار البيضاء. ١٩٨٥. مج ٢. ص ٣٩٩.**

[xlviii] **مشروع محمد عبد الله بن سعيد. الفصل الأول. نقلا عن: إبراهيم حركات. التيارات الفكرية والسياسية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية. دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء. ١٩٨٥. ص ١٥٢.**

[xlix] **المشروع عبارة عن مذكرة مرفوعة من كاتب مجهول إلى السلطان عبد العزيز ، ويبدو أن من وضعها وافد سوري استوطن المغرب طويلا، وأعد مشروعه هذا بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء، واكتشف المذكرة علال الفاسي وأسماها: حفريات عن الحركة الدستورية في المغرب قبل الحماية. مذكرة مرفوعة من كاتب مجهول إلى السلطان عبد العزيز. منشورات مؤسسة علال الفاسي. الرباط. ٢٠١٤.**

[l] **. المرجع نفسه. ص ٨١. القاعدة رقم ٢٧.**

[li] **القاعدة ٢٩.**

[lii] **القاعدة ٣٤– ٣٥.**

[liii] **مشروع الحاج علي زنيبر السلاوي. البند رقم ٢٧. نص المشروع من ملاحق: مظاهر يقظة المغرب. مرجع سابق. مج ٢. ص ٤٠٨.**

[liv] **المرجع نفسه. البند ٣.**

[lv] دستور ١٩٠٨. المادة ٨٤. البند ١. نشر المشروع على أعمدة صحيفة لسان المغرب، صوت المعارضة بالمغرب سنة ١٩٠٨، ولم ينشر منه إلا فصله الأول، والمشروع يعتبر ثمرة مجهود لمجموعة من المثقفين المتزعمين لحركة الإصلاح. نص المشروع مورود في: التيارات الفكرية والسياسية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية. مرجع سابق. ص ١٦٨.

[lvi] المرجع نفسه. المادة ٨٤. البند ٢.

[lvii] المادة ٨٤. البند ١- ٣.

[lviii] المادة ٨٥.

[lix] المادة ٨٦.

[lx] المادة ٨٩.

[lxi] محمد بن الأعرج السليماني. اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب. مط ١. مطبعة الأمنية. الرباط. ١٩٧١. ص ١٦٢- ١٦٤.

[lxii] المرجع نفسه. ص ١٦٥.

[lxiii] منشور بصحيفة السعادة. بتاريخ ٣ يناير ١٩١٤.

[lxiv] محمد الفلاح العلوي. القرويين في مطلع القرن العشرين بين التجديد والتقليد. مجلة دعوة الحق. السنة الثالثة والأربعون. ع ٣٦٤. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط. فبراير ٢٠٠٢. ص ٢٠- ٣٤.

[lxv] محمد الفلاح العلوي. التعليم في الزيتونة والقرويين بين التقليد والتجديد أواخر القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠. ورقة مقدمة للندوة الدولية الحادية عشر: حول الزيتونة: الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي. تونس. ٥- ٦ مايو ٢٠٠٢. ص ٢١.

[lxvi] ديل أف. إيكلمان. المعرفة والسلطة في المغرب "صور من حياة مثقف من البادية في القرن العشرين". ترجمة: محمد أعفيف. مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث (مطبعة النجاح الجديدة). الدار البيضاء. ٢٠٠٠. ص ١.

[lxvii] محمد الفلاح العلوي. القرويين في مطلع القرن العشرين بين التجديد والتقليد. مرجع سابق. ص ٢٠- ٣٤.

[lxviii] عبد الهادي التازي. جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس "موسوعة لتاريخها المعماري والفكري". مرجع سابق. مج ٢. ص ٣٧٠- ٣٧١.

[lxix] روجي لوطورنو. فاس قبل الحماية. ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ١٩٩٢. مج ٢. ص ٦٦٤.

[lxx] محمد بن الأعرج السليماني. حالة علوم الدين بجامع القرويين. صحيفة السعادة. مرجع سابق.

[lxxi] روجي لوطورنو. فاس قبل الحماية. مرجع سابق. مج ٢. ص ٦٦٤.

[lxxii] يحيى بولحية. البعثات التعليمية في اليابان والمغرب من أربعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين "تباين المقدمات واختلاف النتائج". مرجع سابق. ص ١٧٤.

[lxxiii] عبد الهادي التازي. جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس "موسوعة لتاريخها المعماري والفكري". مرجع سابق. مج ٣. ص ٧٤٣.

[lxxiv] أبو محمد. حالة الكلية القروية اليوم. مجلة المغرب. السنة الثانية. ع ١٣. الرباط. أكتوبر ١٩٣٣. ص ١٣- ١٤.